

والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك وقد تقدم السلام على هذا عند قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته ، وقوله ( فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) أى قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغنى من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمحاويج كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة التوبة وقوله (واعتصموا بالله) أى اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به (هو مولاكم) أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعن المولى ونعم النصير) يعنى نعم المولى ونعم الناصر من الأعداء، قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا محقق فىمن أحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بصرتى فان نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبى حاتم والله أعلم. آخر تفسير سورة الحج والله الحمد والمنة

### ( تفسير سورة المؤمنون مكية )

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ \* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنى يونس بن سليم قال أملى على يونس بن يزيد الأيبلى عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا - ثم قال - لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ ( قد أفلح المؤمنون ) حتى ختم العشر ، ورواه الترمذى فى تفسيره والنسائى فى الصلاة من حديث عبد الرزاق به ، وقال الترمذى منكر لانعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لانعرفه ، وقال النسائى فى تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبى عمران عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت ( قد أفلح المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون ) قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها تكلمى فقالت ( قد أفلح المؤمنون ) قال كعب الأحبار لما أعد لهم من الكرامة فيها وقال أبو العالية فأنزل الله ذلك فى كتابه ، وقد روى ذلك عن أبى سعيد الحدرى مرفوعا فقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن مسلمة حدثنا وهيب عن الجريرى عن أبى نصره عن أبى سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمى فقالت ( قد أفلح المؤمنون ) فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوكة ، ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري حدثنا عدى بن الفضل حدثنا الجريرى عن أبى نصره عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال « خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك - قال البزار ورأيت فى موضع آخر فى هذا الحديث -

حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك . فقال لها تكلمي فقالت ( قد أفلح المؤمنون ) فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوكة » ثم قال البزار لانهلم أحداً رفعه إلا عدى بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ملا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي فقالت ( قد أفلح المؤمنون ) » بقية عن الحجازيين ضعيف ، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العيسى عن إسماعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس يرفعه « لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال ( قد أفلح المؤمنون ) قال وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك نجيل » وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن المثني البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصاؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت ( قد أفلح المؤمنون ) فقال الله وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك نجيل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) وقوله تعالى ( قد أفلح المؤمنون ) أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ( الذين هم في صلاتهم خاشعون ) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ( خاشعون ) خائفون ساكنون وكذا روى عن مجاهد والحسن وقتادة والزهرى ، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه الخشوع خشوع القلب وكذا قال إبراهيم النخعي ، وقال الحسن البصرى كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح ، وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية ( قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون ) خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مصلاه فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين كما قال النبي ﷺ في الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حُب إلى الطيب والنساء جعلت قرّة عينى في الصلاة » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال يا بلال « أرحنا بالصلاة » وقال الإمام أحمد أيضاً ثنا عبد الرحمن بن مهدي ثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال يا جارية ائتنى بوضوء لعلى أصلى فأستريح ، فرأنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة » ، وقوله ( والذين هم عن اللغو معرضون ) أى عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصى كما قاله آخرون وملا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى ( وإذا مروا باللغو مروا كراما ) قال قتادة : أنهم والله من أمر الله ماوقفهم عن ذلك . وقوله ( والذين هم للزكاة فاعلون ) الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى

فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والقادير الخاصة وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ( وآتوا حقه يوم حصاده ) وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله ( قد أفلح من زكاهما \* وقد خاب من دسها ) وكقوله ( وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ) على أحد القولين في تفسيرها وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم . وقوله ( والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ) أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيها هم الله عنه من زنا ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله له فلا يلوم عليه ولا حرج ولهذا قال ( فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك ) أي غير الأزواج والإماء ( فأولئك هم العادون ) أي المعتدون . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشر حدثنا عبد الأملی حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله ( أو ما ملكت أيمانهم ) فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ : تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها قال فضرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم . هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق ، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم . وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ( والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ) قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى ( فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ) وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال : حدثني علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلغوه ، والناكح حليلة جاره » هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجبالته والله أعلم . وقوله ( والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ) أي إذا أوثقوا لم يخونوا بل يؤدونهم إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أو فوا بذلك لا كصفات المناققين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوثق خان » وقوله ( والذين هم على صلواتهم يحافظون ) أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قلت ثم أي ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » أخرجه في الصحيحين . وفي مستدرک الحاكم قال « الصلاة في أول وقتها » وقال ابن مسعود ومسروق في قوله ( والذين هم على صلواتهم يحافظون ) يعني مواقيت الصلاة ، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة ، وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ « استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال ( أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة . وفوقه عرش الرحمن » ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله ( أولئك هم الوارثون ) » وقال ابن جرير عن الليث عن مجاهد ( أولئك هم الوارثون ) قال مامن عبداً إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ،

فأما المؤمن فيبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار . وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبىه عن النبى صلى الله عليه وسلم ﷺ قال : « يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ له قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار » فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبابردة بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له ، قلت وهذه الآية كقوله تعالى ( تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً ) وكقوله ( وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ) وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس ، وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه غناب الله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا \* ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس ( من سلالة من طين ) قال من صفوة الماء وقال مجاهد: من سلالة أى من منى بنى آدم ، وقال ابن جرير إنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه . وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب إلى السياق فان آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى ( ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ) وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحيت والطيب وبين ذلك » وقد رواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح ( ثم جعلناه نطفة ) هذا الضمير غائض على جنس الإنسان كما قال فى الآية الأخرى ( وبدأ خلق الإنسان من طين \* ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ) أى ضعيف كما قال ( ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين ) يعنى الرحم معد لذلك مهياً له ( إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ) أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة ولهذا قال ههنا ( ثم خلقنا النطفة علقة ) أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة قال عكرمة وهى دم ( فخلقنا العلقة مضغة ) وهى قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ( فخلقنا المضغة عظما ) يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبا وعروقها . وقرأ آخرون ( فخلقنا المضغة عظما ) قال ابن عباس وهو عظم الصلب وفى الصحيح من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب » ( فكسونا العظام لحمًا ) أى جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ( ثم أنشأناه خلقاً آخر ) أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة

واضطراب (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا النضر يعني ابن كثير مولى بني هاشم حدثنا زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فتنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث فذلك قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني فنفخنا فيه الروح ، وروى عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح قال ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً لآخر) يعني فنفخنا فيه الروح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني نقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً ثم احتلم ثم صار شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا . وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال والله أعلم ، قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً<sup>(١)</sup> ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغاً مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه أجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجه من حديث سليمان بن مهران الأعمش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي خيشمة قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتعكث أربعين يوماً ثم تنحدر في الرحم فتكون علقه . وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبي فقال لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم » فقال هكذا كان يقول من قبلك . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا ؟ شقي أم سعيد أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله فيكتبان ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص » وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو هو ابن دينار به نحوه ، ومن طريق أخرى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد عن أبي شريح الغفاري بنحوه والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول : أي رب نطفة أي رب علقه أي رب مضغ فإذا أراد الله خلقها قال أي رب ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال فذلك يكتب في بطن أمه » أخرجه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس قال : قال عمر يعني ابن الخطاب رضي الله عنه واقفت ربي في أربع نزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا آدم ابن أبي إياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد بن ثابت الأنصاري قال أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة

(١) زاد في بعض الروايات : نطفة

من طين - إلى قوله - خلقنا آخر ) فقال معاذ ( فتبارك الله أحسن الخالقين ) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » وفي إسناده جابر بن زيد الجعفي ضعيف جدا وفي خبره هذا نكارة شديدة وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً فالله أعلم . وقوله ( ثم إنكم بعد ذلك لميتون ) يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ( ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ) يعني النشأة الآخرة ( ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ) يعني يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ويوفى كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثير ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى ( لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ) وهكذا في أول أم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد . وقوله ( سبع طرائق ) قال مجاهد يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى ( تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ) ( ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ) ( الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ) وهكذا قال ههنا ( ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ) أي ويعلم ما يليق في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعده ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ( وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين )

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ \* فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلأَكِلِينَ \* وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلكِ تُحْمَلُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتتمل دمنها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها الأرض الجزر يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها فيأتي الماء يحمل طينا أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لأن أرضهم سبخ يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله ( فأسكننا في الأرض ) أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله ( وإنا على ذهاب به لقادون ) أي لو شئنا أن لا تمطر لفضلنا ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السبخ والبراري والقفار لفضلنا ، ولو شئنا لفضلنا أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفضلنا ، ولو شئنا لفضلنا لا ينزل في الأرض بل ينجر على

ورجها لعلنا ، ولو شئنا لجلناها إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لعلنا ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنظفون فله الحمد والمنة . وقوله ( فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ) يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ( ذات بهجة ) أي ذات منظر حسن وقوله ( من نخيل وأعناب ) أي فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمه الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله ( لسم فيها فواكه كثيرة ) أي من جميع الثمار كما قال ( ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ) وقوله ( ومنها تأكلون ) كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون ، وقوله ( وشجرة تخرج من طور سيناء ) يعني الزيتون ، والطور هو الجبل وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر فان عرى عنها سمى جبلا لا طورا والله أعلم ، وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون ، وقوله ( تنبت بالدهن ) قال بعضهم الباء زائدة وتقديره تنبت الدهن كما في قول العرب ألقى فلان بيده أي يده وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ولهذا قال ( وصنغ ) أي آدم قاله قتادة ( للآكلين ) أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامي عن أبي أسيد واسمه مالك ابن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة » وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق أنا معمر بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ائتمموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق . قال الترمذي ولا يعرف إلا من حديثه وكان يضطرب فيه فرجا ذكر فيه عمر وربما لم يذكره . قال أبو القاسم الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتا وقال هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وقوله ( وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ) يذكر تعالى ما جعل لخلق في الأنعام من المنافع وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملائها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى ( وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ) وقال تعالى ( أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذلناها لهم فتنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون )

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ قَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* قَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولِينَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّبْصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشركوا به وخالف أمره وكذب رسله ( ققال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ) أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ ققال الملائم السادة والأكابر منهم ( ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ) يعنون يرفع عليكم ويتعاطم

بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم ( ولو شاء الله لأنزل ملائكة ) أى لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما معناه بهذا أى يبعث البشر فى آياتنا الأولين يعنون ههنا أسلافهم وأجدادهم فى الدهور الماضية ، وقوله ( إن هو إلا رجل به جنة ) أى مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ( فتربصوا به حتى حين ) أى انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ \* فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْوِيرُ فَاسْتَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ \* فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه فى الآية الأخرى (فدعاه به أتى مغلوب فاتنصر) وقال ههنا (رب انصرنى بما كذبون) فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أى ذكرًا وأُنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) أى من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ، وقوله (ولا تخاطبى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى عند معاينة إنزال المطر العظيم لاتأخذنك رافة بقومك وشفقة عليهم وطمع فى تأخيرهم لعلمهم يؤمنون فأنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطه فى سورة هود بما يعنى عن إعادة ذلك ههنا وقوله (فإذ استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) كما قال (وجعل لكم من الفلك والأعنام ما تركبون\* لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقبون) وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى (وقل رب أنزلى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) وقوله (إن فى ذلك لآيات) أى إن فى هذا الصنيع وهو إتجاه المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات أى لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاء وابه عن الله تعالى وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شىء علم بكل شىء وقوله (وإن كنا لمبتلين) أى لمتحبرين للعباد بارسال المرسلين

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ \* فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* وَقَالَ السَّلَامُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ \* وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ \* أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ \* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ \* إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَعْعُومِينَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ \* قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ \* قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُمْ نَادِمِينَ \* فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ

### غَنَاءُ فِيعَدِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد بهؤلاء عمود لقوله ( فأخذتهم الصيحة بالحق ) وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري وكذبوا ببقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجنائي وقالوا ( أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون \* هيات هيات لما توعدون ) أي بعد بعد ذلك ( إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ) أي فيما جاءكم به من الرسالة والندارة والاختبار بالمعاد ( وما نحن له بمؤمنين \* قال رب انصرني بما كذبون ) أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاه ( قال عما قليل ليصبحن نادمين ) أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ( فأخذتهم الصيحة بالحق ) أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ( تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ) وقوله ( فجعلناهم غناء ) أي صرعى هلكى كغناء السيل وهو الشيء الخفير التافه الهالك الذى لا ينتفع بشيء منه ( فبعداً للقوم الظالمين ) كقوله ( وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ) أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ \* مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ \* ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

يقول تعالى ( ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ) أي أمما وخلائق ( ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ) يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وخلفاً بعد سلف ( ثم أرسلنا رسولنا تترى ) قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضاً وهذا كقوله تعالى ( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ) وقوله ( كلما جاء أمة رسولها كذبوه ) يعني جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى ( يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ) وقوله ( فاتبعنا بعضهم بعضاً ) أي أهلكتناهم كقوله ( وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح ) وقوله ( وجعلناهم أحاديث ) أي أخباراً وأحاديث للناس كقوله ( فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزوق )

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ \* إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ \* فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ \* فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ \* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والالتقياد لأمرها لكونهما بشيرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين وأزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيته وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقيبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى ( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكتنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون )

﴿ وَجَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله ( وآويناها إلى ربوة ذات قرار معين ) قال الضحاك عن ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة ، قال ابن عباس وقوله ( ذات قرار ) يقول ذات خصب ( ومعين ) يعني ماء ظاهراً وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة وقال مجاهد ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبيرة ( ذات قرار ومعين ) استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة ( ومعين ) الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ولولا الربى غرقت القرى وروى عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جدا وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ( وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ) قال هي دمشق قال وروى عن عبد الله بن سلام والحسن بن زيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ( ذات قرار ومعين ) قال : أنها دمشق وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد وآويناها إلى ربوة قال عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول : في قول الله تعالى ( إلى ربوة ذات قرار ومعين ) قال هي الرملة من فلسطين ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف القرطبي حدثنا رواه ابن الجراح حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة حدثنا الشيباني عن ابن وعلة عن كريب السحولي عن مرة البهذي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل « إنك تموت بالربوة » فمات بالرملة وهذا حديث غريب جداً وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله ( وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ) قال المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى ( قد جعل ربك تحتك سرياً ) وكذا قال الضحاك وقتادة إلى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الأظهر لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا أولى ما يفسر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ \* وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ \* فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ \* فذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ \* أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ \* نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحة فجزاهم الله عن العباد خيراً . قال الحسن البصري في قوله ( يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ) قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال اتهاوا إلى الحلال منه ، وقال سعيد بن جبيرة والضحاك ( كلوا من الطيبات ) يعني الحلال ، وقال أبو إسحق السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه ، وفي الصحيح « وما من نبي إلا رعى الغنم » قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا صكنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » وفي الصحيح « إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » وفي الصحيحين « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه

وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفطر يوماً إذا لاقى » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النجيمان الحكم  
ابن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قال بعثت إلى النبي ﷺ  
بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت  
اشتريتها من مالى ، فشرب منه فلما كان من الغد أتته أم عبد الله بنت شداد فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبن مرثية  
لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه ، فقال لها « بذلك أمرت الرسل أن لاتأكل إلا طيباً ولا تعمل  
إلا صالحاً » وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسنند الإمام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن  
عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب  
لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ( يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما  
تعملون عليم ) وقال ( يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام  
ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك » وقال الترمذى حسن غريب  
لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق . وقوله ( وإن هذه أمتكم أمة واحدة ) أى دينكم يامعشر الأنبياء دين واحد  
وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال ( وأنا ربكم فاتقون ) وقد تقدم الكلام على ذلك  
في سورة الأنبياء وأن قوله ( أمة واحدة ) منصوب على الحال وقوله ( فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ) أى الأمم الذين بعثت  
إليهم الأنبياء ( كل حزب بما لديهم فرحون ) أى يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهددا  
لهم ومتواعدا ( فذرهم في غمرتهم ) أى في غيهم وضلالهم ( حتى حين ) أى إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى ( فهل  
السكافرين أمهلهم رويداً ) وقال تعالى ( ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ) وقوله ( أيحسبون أنما  
نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ) يعنى أيقظن هؤلاء الغرورون أن مانعطيهم من الأموال والأولاد  
لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ( نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين ) لقد  
أخطأوا في ذلك وخاب رجائهم بل إنما نعمل بهم ذلك استدراجاً وإظهاراً وإملاء ولهذا قال ( بل لا يشعرون ) كما قال  
تعالى ( فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ) الآية . وقال تعالى ( إنما نحلى لهم  
ليزدادوا إثمًا ) وقال تعالى ( فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون \* وأملى لهم ) الآية وقال  
ذرني ومن خلقت وحيداً - إلى قوله - عنيداً ) وقال تعالى ( وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلنى إلا من  
آمن وعمل صالحاً ) الآية والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله ( أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع  
لهم في الخيرات بل لا يشعرون ) قال مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم  
وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح  
ابن محمد عن مرة الهمداني حدثنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله  
قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن  
أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا  
وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال « غشمة وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به  
فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء السيء ولكن يمحوا السيء الحسن إن الخبيث  
لا يمحو الخبيث »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِنِآيَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ  
لَا يُشْرِكُونَ \* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ \* أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي  
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكرهم كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنأ (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يؤمنون بآياته السكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فما يحبه ويرضاه وإن كان نهياً فهو بما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق كما قال الله (والذين هم بربهم لا يشركون) أي لا يعبدون معه غيره بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفاء له: وقوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يارسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال «لا يانفت أي بكر يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه، وقال «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم (أولئك يسارعون في الخيرات)» وقال الترمذي: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية (والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون. وروى هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك. قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا إسماعيل السكي حدثنا أبو خلف مولى بني جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضی الله عنها فقالت مرحباً بأبي عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا؟ فقال أخشى أن أملل فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها؟ قالت آية آية؟ قال (الذين يؤتون ما آتوا) (والذين يأتون ما آتوا) فقالت أيتهما أحب إليك؟ فقلت والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هي؟ فقلت (الذين يأتون ما آتوا) فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف. فيه إسماعيل بن مسلم السكي وهو ضعيف، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر، لأنه قال (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المتأخرين أو اللقصرين والله أعلم

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \* بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذِاهُمْ يَجْتَرُونَ \* لَا تَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ \* قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ \* مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سُمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي إلا ما تطيق حمله والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال (ولدينا كتاب ينطق بالحق) يعني كتاب الأعمال (وهم لا يظلمون) أي لا يخسرون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو

ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش (بل قلوبهم في غمرة) أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (ولهم أعمال) أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك (هم لها عاملون) قال لا بد أن يعملوها كذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد ، وقال آخرون (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لاحالة لتحق عليهم كلمة العذاب ، وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن ، وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود «فوالذى لإله غيره إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» وقوله (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم النعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه وقمته بهم (إذا هم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى (ذرى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجعيا) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وقوله (لا تجأروا اليوم إنكم منا لاتصرون) أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم لا محيد ولا مناص ولا وزير لزم الأمر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى إذا دعيتم أبيتكم وإن طلبتم امتنعتم (ذلك بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقوله (مستكبرين به سامراً تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدها) أن مستكبرين حال منهم حين نكصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير فى به فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . (والثانى) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون وينذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة (والثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائي فى التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيد الله عن إسرائيل عن عبد الأظى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمرحين نزلت هذه الآية (مستكبرين به سامراً تهجرون) فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه وقد أظن ابن أبي حاتم ههنا بما هذا حاصله

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ \* أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ \* وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ \* أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ \* وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَسَكِبُونَ \* وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفَى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقول تعالى منكرًا على الشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكل منه ولا أشرف لاسيا آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية حيث لم يبلغهم

كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقبلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . وقال قتادة ( أفلم يدبروا القول ) إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكرنا على الكافرين من قريش ( أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ) أي أنهم لا يعرفون عمداً وصدقه وأمانته وصيائته التي نشأ بها فيهم أي أفقدرون على إنكار ذلك والمباهة فيه ، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله ( أم يقولون به جنة ) يحكى قول المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله مالا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبداً لا بدن ولهذا قال ( بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ) يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم

وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له « أسلم » فقال الرجل إنك لتدعوني إلى امر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وإن كنت كارهاً » وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبي الله ﷺ « رأيت لو كنت في طريق وعر وعت فلتيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟ » قال نعم : قال « فوالذي نفس محمد بيده إنك لبي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه » وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ « رأيت لو كان لك فتیان أحدهما إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك ؟ » قال بل فتأى الذي إذا حدثني صدقتي وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « كذا كم أتم عند ربكم » . وقوله ( ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ) قال مجاهد وأبو صالح والسدي الحق هو الله عز وجل والمراد لأجابههم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم ( لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) ثم قال ( أم يقسمون رحمة ربك ) وقال تعالى ( قل لو أتمت تملكون خزائن رحمة ربى إذا لم مسكنم خشية الإنفاق ) الآية ، وقال ( أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيراً ) ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدييره لخلقته تعالى وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ( بل أتيناهم بذكرهم ) أي القرآن ( فهم عن ذكرهم معرضون ) وقوله ( أم تسألهم خرجاً ) قال الحسن أجرة ، وقال قتادة جعلاً ( فخرج ربك خير ) أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إليهم إلى الهدى بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال ( قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ) وقال ( قل ما أسألتكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ) وقال ( قل لا أسألكم عليه أجراً إلا الودة في القربى ) وقال ( وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً ) وقوله ( وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم \* وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون ) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم

سفر اتها إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة خبزة فقال أرايتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فكلوا وشربوا وسموا فقال لهم ألم ألكم على تلك الحال فجعلت لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا بلى، قال فان بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني قال فقالت طائفة صدق والله لتتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار وتعلموني تتفاحون فيها تفاحم الفرائش والجناب فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتزدون على معا وأشتاتا أعرفكم بسماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمي، فيقال يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يعشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمدياً محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء ينادي يا محمدياً محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها ححمه فينادي يا محمدياً محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم ينادي يا محمدياً محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت» وقال علي بن المهدي هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي (قلت) بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح ووثقه النسائي وابن حبان وقوله (وإن الدين لا يؤمنو بالآخرة عن الصراط لنا كبون) أي لعادلون جائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها وقوله (ولو رحمنهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) يخبر تعالى عن غلظتهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما اتقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطيغيانهم كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) \* بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لما نهوا عنه - إلى قوله - بمبعوثين) فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبداً

﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ كَثِيرٍ مِمَّا كَفَرُوا بِمَا كَانُوا لِرَبِّهِمْ وَالْمَا يَتَضَرَّعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْأَمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ \* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ \* وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ \* وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* بَلَىٰ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ \* قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتَ لَمُبْعُوثُونَ \* لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى (وقد أخذناهم بالعذاب) أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أي لما ردوا ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم ما استكانوا أي ما خشعوا (وما يتضرعون) أي ما دعوا كما قال تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) الآية، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة الروزي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبي عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة

عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية ، وكذا رواه النسائي عن محمد ابن عقيل عن علي بن الحسين عن أبيه به ، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا علي قريش حين استعصوا فقال « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثني وهب بن عمرو بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب نحن في طرف من عذاب الله والله يقول ( ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ) قال وصام وهب ثلاثا متواصلة قليل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة : وقوله ( حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ) أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أجلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم : ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله ( قليلا ما تشكرون ) أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليفة وذريته لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لمقات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا إلا أعاده كما بدأ ولهمنا قال ( وهو الذي يحيي ويميت أي يحيي الرمم ويميت الأمم ( وله اختلاف الليل والنهار ) أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرها كقوله ( لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ) الآية . وقوله ( أفلا تعقلون ) أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء ، ثم قال مخبرا عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ( بل قالوا مثل ما قال الأولون \* قالوا أئذا أمئنا أمئنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ) يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيروتهم إلى البلى ( لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ) يعنون إعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخبارا عنهم ( أمئنا كنا عظاما نحرة \* قالوا تلك إذا كرة خاسرة \* فإنما هي زجرة واحدة \* فإذا هم بالساهرة ) وقال تعالى ( أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين \* وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة هو بكل خلق عليم ) الآيات

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَائِكَتُهُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِمْ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ \* بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره العتريين له بالرؤية وأنه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يمكنون شيئا ولا يستبدون بشيء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) فقال ( قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ) أي من مالكتها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات ( إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله) أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك (قل أفلاتنكرون) أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لاغيره (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف الخلوقات كما جاء في الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على ممواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة ، وفي الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة » ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشاً لارتفاعه . وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض في العرش كالتنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثوري عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفي رواية : إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال هبنا ( ورب العرش العظيم ) أى الكبير وقال في آخر السورة ( رب العرش الكريم ) أى الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء ، وقال ابن مسعود . إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله ( سيقولون لله قل أفلاتنكرون ) أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب التفكير والاعتبار . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنا عبيد الله بن جعفر أخبرني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنماً فقال لها ابنها يا أمه من خلقك ؟ قالت الله قال فمن خلق أبي ؟ قالت الله قال فمن خلقني ؟ قالت الله قال فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فأنى أسمع الله شأننا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث ، قال عبد الله بن دينار كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث قلت في إسناده عبيد الله ابن جعفر اللديني والد الإمام علي بن اللديني وقد تكلموا فيه فأنه أعلم . ( قل من بيده ملكوت كل شيء ) أى بيده الملك ( مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ) أى متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا والله نفسى بيده » وكان إذا اجتهد في اليمين قال « لا ومقلب القلوب » فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ( وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ) كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلافتات عليه ولهذا قال الله ( وهو يجير ولا يجار عليه ) أى وهو السيد العظيم الذى لأعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : وقال الله ( لا يستل عمن يفعل وهم يستلون ) أى لا يستل عمن يفعل لعظمتهم وكبريائهم وغلبتهم وقهرهم وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يستلون عن أعمالهم كما قال تعالى ( نوربك لنسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون ) وقوله ( سيقولون لله ) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ( قل فأنى تسحرون ) أى فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى ( بل أتيناكم بالحق ) وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقننا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ( وإنهم لسكاذبون ) أى في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ( ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ) فالشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال

الله عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّمَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والشاهد أن الوجود منتظم متنسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه ببعض في غاية الكمال (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التامع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا الحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً فإما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر الغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ، ولهذا قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) أى عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً (علم الغيب والشهادة) أى يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه (فتعلمى عما يشركون) أى تقدر وتترزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ \* رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ \* اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ \* وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ \* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم (رب إما ترينى ما يوعدون) أى إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » وقوله تعالى (وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والحزن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسىء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه حبة فقال تعالى (ادفع بالتي هى أحسن السيئة) وهذا ككافال فى الآية الأخرى (ادفع بالتي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا) الآية أى وما يلهم هذه الوصية أو هذه الحصلة أو الصفة (إلا الذين صبروا) أى على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم التبيح (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أمره الله أن يستعيز من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا يتقادون بالمعروف ، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقوله تعالى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى فى شئ من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرده الشيطان عند الأكل والجماع والدمج وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الفرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان

رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفرع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحاق وقال الترمذي حسن غريب

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال ( رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا ) كما قال تعالى ( وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت - إلى قوله - والله خير بما تعملون ) وقال تعالى ( وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب - إلى قوله - مالكم من زوال ) وقال تعالى ( يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فتعمل غير الذي كنا نعمل ) وقال تعالى ( ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ) وقال تعالى ( ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا - إلى قوله - وإنهم لكاذبون ) وقال تعالى ( وترى الظالمين لمارأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ) وقال تعالى ( قالوا ربنا أئمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ) والآية بعدها . وقال تعالى ( وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا للظالمين من نصير ) فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار حين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ههنا ( كلا إنها كلمة هو قائلها ) كلاً حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا تقبل منه وقوله تعالى ( إنها كلمة هو قائلها ) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلاً أي لأنها كلمة أي سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقاله هذه كما قال تعالى ( ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ) قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار ، وقال محمد بن كعب القرظي ( حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت ) قال فيقول الجبار ( كلا إنها كلمة هو قائلها ) وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وقال قتادة في قوله تعالى ( حتى إذا جاء أحدكم الموت ) قال كان العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فيعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فالنظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظي نحوه وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل - يعني ابن عياض - عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمراً ، قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالنهبوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها

وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثني سلمة بن تمام حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم ، حية عند رأسه

وحية عند رجله يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) . وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى (ومن ورائهم) يعني أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر لاهم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون وفي قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) تهديد للمؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى (من ورائهم جهنم) وقال تعالى (ومن ورائه عذاب غليظ) وقوله تعالى (إلى يوم يبعثون) أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فلا يزال معذبا فيها » أى فى الأرض

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ \* فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

يجبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ( فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ) أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرئى والد لولده ولا يابوى عليه ، قال الله تعالى ( ولا يسأل حميم حميا يصرونهم ) أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ) الآية وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه - قال يفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله قال الله تعالى فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ) رواه ابن أبى حاتم

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أم بكر بنت المسور بن مخزومة عن عبيد الله بن أبى رافع عن المسور - هو ابن مخزومة - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فاطمة بضعة منى يعظنى ما يعظها وينشطنى ما ينشطها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسبى وصهرى » وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخزومة أن رسول الله ﷺ قال « فاطمة بضعة منى يرببى ما يرببها ويؤذنى ما أذاها » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا النبر « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم » قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتدتم القهقرى « وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضى الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : أما والله ماى إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة إلا سبى ونسبى » رواه الطبرانى والبراز والهيثم بن كليب والبيهقى والحافظ الضياء فى المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا عظاما وأكراما رضى الله عنه ، فقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة أبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهرى » وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « سألت ربي عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج

إلى أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك » ومن حديث عمار بن سيف عن إسماعيل عن عبد الله بن عمرو ، وقوله تعالى ( فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ) أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس ( فأولئك هم المفلحون ) أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر مامنهم هربوا ( ومن خفت موازينه ) أى ثقلت سيئاته على حسناته ( فأولئك الذين خسروا أنفسهم ) أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا داود بن المغيرة حدثنا صالح المري عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال : إن لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً : إسناد ضعيف فان داود بن المغيرة ضعيف متروك ولهذا قال تعالى ( في جهنم خالدون ) أى ما كثون فيها ذامون مقيمون فلا يظنون ( تلتفح وجوههم النار ) كما قال تعالى ( وتغشى وجوههم النار ) وقال تعالى ( لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن أبي العراء حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن أبي سغان ضرار بن مرة عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن جهنم لما سبق لها أهلها تلقاهم لها ثم تلتفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الحضرمي بن علي بن يونس القظان حدثنا عمرو بن أبي الحارث بن الحضرمي حدثنا سعيد بن سعيد القبري عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى ( تلتفح وجوههم النار ) قال تلتفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقوله تعالى ( وهم فيها كالخون ) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني عابسون ، وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ( وهم فيها كالخون ) قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدأ أسنانه وقلصت شفتاه . وقال الإمام أحمد رحمه الله أخبرنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال « ( وهم فيها كالخون ) - قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه . وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرتة » ورواه الترمذي عن سويد ابن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ \* قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ \* رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿

هذا تعريب من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والآثم والمحارم والعظائم التي أو بقتهم في ذلك فقال تعالى ( ألم تكن آياتي تلى عليكم فكنتم بها تكذبون ) أى قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى ( لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ) وقال ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) وقال تعالى ( كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - إلى قوله - فسحقاً لأصحاب السعير ) ولهذا قالوا ( ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ) أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها فضلنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا ( ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون ) أى ارددنا إلى الدنيا فان عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال ( فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل \* - إلى قوله - فالحكم لله العلى الكبير ) أى لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون ﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ \* إِنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنًا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ \* فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ \* إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول ( اخشوا فيها ) أي امكثوا فيها ساغرير مهانين أذلاء ( ولا تكلمون ) أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فانه لا جواب لكم عندي قال العوفي عن ابن عباس ( اخشوا فيها ولا تكلمون ) قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان الروزي حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فليجيهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ما كنتم قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون ( ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين \* ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون ) قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ( اخشوا فيها ولا تكلمون ) قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحجر أو لها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحدا يعني من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يا رب فيقول الله من عرف أحدا فليخرجه فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحدا فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول ما عرفك قال فعند ذلك يقولون ( ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون ) فعند ذلك يقول الله تعالى ( اخشوا فيها ولا تكلمون ) فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ، ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنين وأوليائه فقال تعالى ( إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آفغر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين \* فاتخذتموهم سخريا ) أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ( حتى أنسواكم ذكري ) أي حملكم بغضهم علي أن أنسيتم معاملتي وكنتم منهم تضحكون ) أي من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى ( إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ) أي يلغزونهم استهزاء ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعبادة الصالحين فقال تعالى ( إن جزيتهم اليوم بما صبروا ) أي على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ( أنهم هم الفائزون ) أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ \* قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسئَلِ الْعَادِينَ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ \* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى منها لهم على ما أضعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفاضوا كما فاز أوليائه المتقون ( قال كم لبئتم في الأرض عدد سنين ) أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ( قالوا لبئنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ) أي الحاسين ( قال إن لبئتم إلا قليلا ) أي مدة يسيرة على كل تقدير ( لو أنكم كنتم تعلمون ) أي لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير حدثنا الوليد حدثنا صعوان عن أبي يعقوب بن عبد الكلاعي أنه سمعه يخاطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبئتم في الأرض

عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم - قال - لنعم ما تجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وحنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ثم قال يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول بئس ما تجرتم في يوم أو بعض يوم نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلدين « وقوله تعالى ( أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ) أى أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ( وأنكم إلينا لا ترجعون ) أى لا تعودون في الدار الآخرة كما قال تعالى ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) يعنى هملاً ، وقوله ( فتعالى الله الملك الحق ) أى تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فانه الملك الحق المنزه عن ذلك ( لا إله إلا هو رب العرش الكريم ) فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أى حسن المنظر بهى الشكل كما قال تعالى ( وأنبتنا فيها من كل زوج كريم ) : قال ابن أبي حاتم حدثنا طلى بن الحسين حدثنا طلى بن محمد الطنافسى حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقى عبداً أخرجه الله من رحمته وحرمة جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافداً يباق وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب المهالكين وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نجهه واقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأجاب وياشر التراب ، ووجه الحساب ، مرتهم بعمله غنى عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موثيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف رداثه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن نصير الحولاني ثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حسن بن عبد الله أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود فقراً في أذنه هذه الآية ( أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون \* فتعالى الله الملك الحق ) حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وماذا قرأت في أذنه ؟ » فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال » وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرونا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ( أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ) قال فقرأناها فغنمنا وسلنا ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا إسحق بن وهب العلاف الواسطى حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أمان أمق من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ \* وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبيد معه سواء ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى ( ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ) وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله ( فإنما حسابه عند ربه ) أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر ( إنه لا يفلح الكافرون ) أى لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاته . قال قتادة : ذكر

لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال « فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمى . هذا مرسى من هذا الوجه ، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك . وقوله تعالى ( وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالنفس إذا أطلقت معناه نحو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويرفقه فى الأقوال والأفعال . آخر تفسير سورة المؤمنون .

### ( تفسير سورة النور وهى مدنية )

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

( سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ )

يقول تعالى هذه السورة أنزلناه ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى مع ماعداها ( وفرضناها ) قال مجاهد وقناة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وطى من بعدكم ( وأنزلنا فيها آيات بينات ) أى مفسرات واضحة ( لعلكم تذكرون ) ثم قال تعالى ( الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ) يعنى هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذى لم يتزوج ، أو محصناً وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية ويزاد على ذلك أن يعرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التعريب إلى رأى الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يعرب ، وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهنى فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعنى أجبوا - على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدة مائة وتعريب عام وأن على امرأة هذا : الرجم . فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتعريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها : وفى هذا دلالة على تعريب الزانى مع جلدة مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إذا كان محصناً وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك حدثنى ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحسن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولاً ، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثنى عبد الرحمن بن عوف أن عمر